مصـــــر

أول التوحيد، أخناتون

من الاستخفاف بالعقل والمنطق والتاريخ أن تعتبر اليهودية داعية التوحيدية الأولى، أو أساس التوحيد الأول الذي عاصر الديانات التعددية الآلهة التي سادت عباداتها ما بين دجلة والفرات، وبين الفرات والنيل، وأجزاء من باقي الجزيرة العربية، بالإضافة إلى بلاد فارس وبلاد الإغريق والرومان، والتي عرفت بحضارات ما بين النهرين وشرق المتوسط وحوض المتوسط، فقد سبقها توحيد النبي إبراهيم الخليل ومن سبقه من الأنبياء كنوح وإدريس (صلى الله علبه وسلم)، إضافةً إلى مجموعة كبيرة من الأنبياء والقديسين والحكماء ممن لم يرد ذكرهم في الكتب السماوية الثلاثة، وصولاً إلى توحيد آدم (صلى الله علبه وسلم).

تتجلى هذه الحقيقة في القول الإلهي لرسوله الكريم محمد (صلى الله علبه وسلم في القرآن الكريم ﴿وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيماً﴾[1].

كلنا يحترم ويجل الرسالات السماوية التوحيدية التي جاء بها الأنبياء والمرسلون عبر الوحي الإلهي، لكننا أيضاً نجل ونحترم ونحاول الإضاءة على المحاولات الأخرى الإنسانية المليئة بالحكمة والتقوى، التي قام بها عظماء وحكماء وقديسون وأنبياء، قد لا نعرفهم، تقرباً من الإله وإخلاصاً له. هذه القوة الإلهية الخفية غير خافية على أصحاب العقول بنعمتها وقدرتها وعطاياها الكريمة التي لا تحصى.

١- القرآن الكريم سورة النساء الآية 164.

رغم هذا النزوع الإنساني الفطري نحو البحث عن الإله والتقرب منه عبر محاولات مختلفة في أشكالها وتعابيرها، بيد أنَّنا لا نستطيع الجزم بأن أولئك العظماء والحكماء الباحثين عن السر الإلهي والحكمة في الحياة والموت والخلود، هم في مرتبة الأنبياء والمرسلين الذين أشارت إليهم الآية القرآنية الشريفة الآنفة الذكر.

والرسول الأعظم محمد (صلى الله علبه وسلم توجّه إليه خطاب إلهي في سورة الإسراء ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾[1].

وثمة أديان ومذاهب متعددة تنتشر في أفريقيا وبلاد الهند والصين واليابان ووسط وجنوب شرق آسيا وغيرها. قادت هذه الثقافات المذهبية والأديان مجتمعاتها وشعوبها المختلفة نحو نور العلم والتطور والعدل ونظام الأخلاق والفضيلة (السيخ، الهندوس، البوذية). علينا أن ندرك أن أبا الموحدين الكتابيين (التوراة والإنجيل والقرآن) إبراهيم الخليل (صلى الله علبه وسلم) آمن بالله بالفطرة، على الرغم من إحساسه الداخلي بوجود إله واحد، إلا أن هذا لم يمنعه من البحث عنه في النجم والقمر والشمس، وما ترسخ إيمانه المطلق والمحسوس إلا بعد تجربة وبرهان إلهي عن قدرة هذا الإله الواحد في إحياء الموتى، والتي وردت في (التوراة والقرآن الكريم معاً).

ومن المعروف تاريخياً أن محمد بن عبد الله (صلى الله علبه وسلم كان من المؤمنين بإبراهيم وقدسية البيت العتيق، على الرغم من أميته؛ وأنه كان على خلق عظيم وصفات خلقية فاضلة ويلقب بـ (الأمين) من قبل قومه الوثنيين الذين كانوا يقدسون مقام إبراهيم ويجلونه. يصف الله تعالى صفات (محمد) (صلى الله علبه وسلم بخطابه له ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[2]، ثناءً على صفاته الحميدة وفضائله، حيث كان يعتصم فيَ غار حراء مَتفكراً بوجود الخالق باحثاً عنه، إلى أن جاءه الوحي الإلهي والأمر الإلهي الأول (اقرأ)، وصولاً إلى تكليفه بحمل رسالة التوحيد إلى العالم أجمع. ويقول الله تعالى في سورة الأحزاب ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾[3].

١- القرآن الكريم سورة الإسراء الآية 85.
٢- القرآن الكريم سورة القلم الآية 4.
٣- القرآن الكريم سورة الأحزاب الآية 45.

الأنبياء المكرمون (موسى وعيسى ومحمد) عليهم السلام، أصحاب الرسالات السماوية الثلاث، كانت علاقتهم مباشرة مع الوحي الإلهي، حيث مكنهم الله تعالى من فعل المعجزات وتقديم البينات للناس بالبرهان والإحساس والرؤى المباشرة، وفي ذلك تكريم إلهي لمخلوقاته ورسله دفع بهم للهداية والنور واليقين.

توخيت من هذه المقدمة الدخول إلى قصة فرعون الموحد (الملك أمنحوتب الرابع) إخنى آتون المصري التوحيدي الأول في مصر، الذي حاول فلسفة اكتشاف وجود الخالق (الإله الواحد) القادر، بشكل علمي ومنطقي اعتُبِر متطوراً في عصر سادت فيه ثقافة تعدد الآلهة والثقافات الدينية المختلفة. وسواءً انتصر أخناتون التوحيدي أم أخفق في ذلك، فإن ثورة العمارنة التي قادها تركت لمصر تراثاً وأثراً عظيماً وإرثاً حضارياً أسس بدوره لظهور الديانات التوحيدية (كديانة موسى التوحيدية) التي تطورت مبادئها الأخناتونية لاحقاً إلى ثورة موسوية أسست بدورها للثورتين التوحيديتين (المسيحية والإسلام)، ذلك بغض النظر عن خروج الكثير من بني إسراءيل عن الهداية الموسوية لاعتناق معبودات وآلهة أخرى هي أقرب للوثنية والعصبوية القبلية البدائية منها إلى ديانة موسى التوحيدية الهدائية التي كملها وأضاف إليها مخلصها السيد المسيح عليه السلام، بالرسالة والإيمان المسيحي.

يُعد الملك المصري الشاب أخناتون من أوائل المبدعين الثوريين العلمانيين الذين اعتمدوا على التفكير والتجربة في اكتشاف قدرة الإله الواحد. رفض الملك التوحيدي الأول كل معالم الديانة التقليدية المحلية لنظام (تعدد الآلهة)، واعتبرها غير موجودة، وأمر بتحطيم صورها وأنصابها ومعابدها، ومنع عبادتها، ووضع بديلاً عنها عبادة الإله الواحد الذي لا شريك له، وجسّده بالشمس الساطعة التي تخلق الزمن والطاقة والخصب والحياة، وحاول توحيد العبادات المحلية والشعبية جميعها بعبادة إله واحد في إمبراطورية شاسعة تمتد من الفرات إلى النيل، متدرجاً بذلك نحو التوحيدية الأولى. ووَصَف الإله بأنه لا يصور، ولا يجسد، ولا يرى، وجسّد به الإيمان والحياة الأخرى والانبعاث، الذي كان مكرساً ببدائية في الديانات المصرية بشكل حمل معه نظام الأخلاق والعدالة والانضباط الاجتماعي.

(إن تصور عدم وجود الأخلاق في الأديان الوثنية ليس صحيحاً، والشيء الصحيح فقط هو أن الأخلاق لا تعود إلى الدين بالمعنى الدقيق، ولا إلى طقوس القرابين وقواعد الطهارة، إنما تعود إلى مجالات دنيوية للحكمة غالباً ما تكون طبقية أو بلاطية. والأخلاق لا تخص حياة البشر وسلوكهم مع بعضهم البعض، ولا تخص علاقتهم بالآلهة. وأنا أفترض أن العدالة لم تولد في أحضان الدين، إنما جاءت إليه من الخارج، وبهذا جعلت الدين أخلاقياً، وجعلت قبل كل شيء العدالة لاهوتية أو مقدسة، وتُظهِر أمام أعيننا أصول الأخلاق الدنيوية نسبياً، وترينا كذلك بداية جعلها لاهوتية. تقع الخطوة المصرية لجعل العدالة لاهوتية في فكرة محكمة الأموات، التي كانت بدايتها في عتبة الانتقال من الألف الثالث إلى الألف الثاني

قبل الميلاد، والتي وضعت فكرة العدالة على أسس إلهية. وحتى في حال فشل الملكية التي كانت مكلفة من قبل الخالق بتنفيذ العدالة على الأرض، يصبح الفرد مسؤولاً بعد موته عن أعماله في الدنيا أمام الإله، ولكن التعابير التي خصت محكمة الأموات لم تكن بالواقع سوى معايير الحياة الاجتماعية نفسها مثل: لا تقتل، لا تسرق، لا تكذب، لا تقم بأعمال الدعارة، لا تهِن الملك، لا تطعن الإله، لا تحرّض على التمرد، لا تمس ملكيات المعابد، لا تؤلم أحداً، لا تجوّع أحداً، لا تسبب ذرف الدموع، لا تعذب الحيوانات، لا ترفع مقدرة العمل بداية كل يوم، لا تشتم أحداً أو تتنازع معه، لا تفشِ سرّ أحد، لا تلوِّح لأحد باليد، لا تغضب، لا تقُم بعمل عدواني، لا تتكبر، لا تصمّ سمعك أمام كلمات الحقيقة.

إن الفكرة الحقيقية لجعل العدالة لاهوتية في مصر ليست هي في تكوين الدولة، إنما فكرة محكمة الأموات، وبهذا توضع معايير الأخلاق على أسس لاهوتية، على أن الإله لا يظهر هنا كمشرع إنما كقاضٍ، ولهذا الاختلاف ميزة حاسمة، لأن القانون الذي يحاكم به إله الأموات في مصر هو ليس من صنع الإله، إنما هو محكمة بشرية والإله يحاكم بمقاييس هذا الجيل والأجيال القادمة نفسها، ومن عاش يتجاوب مع البشر يعيش متجاوباً مع الإله أيضاً)[1].

قد أكون مبالغاً في هذا الاقتباس، ولكني وجدت فيه ما يثري هذا البحث ويسلط الضوء عمّا أردت أن أعبر فيه عن جوانب عديدة لا تزال غائبة عن المعرفة للكثير منا، لا سيما ما يتعلق بكتاب الأخلاق للديانة المصرية القديمة، وما حملته هذه الثقافة من قيم أخلاقية ومثل إنسانية رائعة وصالحة، فقيم محكمة الأموات المصرية تعد أكثر تقدمية وثورية ممّا جاء في الوصايا العشر وألواح موسى التوراتية التي تلقاها في سيناء على جبل الطور، رغم أن بين الحدثين أكثر من ألف عام في صالح الوصايا العشر حداثة وتاريخية، وأكثر من مئة عام أيضاً منذ وفاة قائد ثورة العمارنة التوحيدية الإصلاحية (أخناتون).

يلحظ القارئ الكريم التلميح الوارد على لسان يان أسمان فيما يتعلق بموضوع الدولة وعلاقتها بالأخلاق أو علاقة الأخلاق في تشكيل الدولة. في ذلك إشارة للهدف الرئيس الذي سعى إليه العبرانيون الذين خرجوا من مصر مع موسى في محاولة لتشكيل دولة، وفي المقام الأول تحت غطاء ادّعاء اتباع دعوة موسى للتوحيد ظاهراً، بينما كانوا يبطنون في نفوسهم إيجاد وطن قومي وإله سياسي يوفر غطاءً يشرعُ به اغتصاب ما سمي (أرض الميعاد)، بغض النظر عن اعتناق ديانة موسى أو غيرها من الديانات وتبني أي إله من الآلهة. ونلاحظ في قول أسمان: (إن الخطوة الحقيقية لجعل العدالة لاهوتية في مصر ليست في تكوين

١- يان أسمان: التمييز الموسوي ص 71-72.

الدولة) إشارة للهدف الأساسي لبني إسراءيل وما سعوا إليه. كما يشير إلى أن النمط المصري لفكرة العدالة والأخلاق الذي لم يكن يتناسب مع مصالحهم وغاياتهم، وهو أحد الأسباب الرئيسة للخروج.

فالعدالة والأخلاق والحق والقانون لا تنطبق إلا على بني إسراءيل، وهي مبادئ إلهية مخصصة لهم لتطبق عليهم وحدهم ولا تطبق بالمطلق على غير اليهود من (الغويم، الأغيار، الأممين)، ولا تخص إلا الشعب المختار وحده. من هذه النقطة بالذات بدأ الانقلاب العبراني على موسى ومن اتبعه في سيناء وعين قادس، وعلى قمة جبل نبو على ضفة نهر الأردن . وهنا بالذات تحولت الدعوة الموسوية من ديانة هدائية أممية إلى دعوات قبلية بدائية منغلقة وروراثية، وتحولت التوراة من رسالة موسوية إلى حكاية كتابية تحمل العنصرية والبدائية والتوحش.

أستعرض هنا قليلاً من كثير من نصوصها المشوبة بالوثنية والعصبوية والاستعلائية: (۞لا تُقْرِضْ أَخَاكَ بِرِباً رِبَا فِضَّةٍ أَوْ رِبَا طَعَامٍ أَوْ رِبَا شَيْءٍ مَا مِمَّا يُقْرَضُ بِرِباً ۞لِلأَجْنَبِيِّ تُقْرِضُ بِرِباً...)[1]، (الغويم والخاسوت)، (لا تَأْكُلُوا جُثَّةً مَا. تُعْطِيهَا لِلغَرِيبِ الذِي فِي أَبْوَابِكَ فَيَأْكُلُهَا أَوْ يَبِيعُهَا لأَجْنَبِيٍّ...)[2]، (وَلا تَشْتَهِ امْرَأَةَ قَرِيبِكَ وَلا تَشْتَهِ بَيْتَ قَرِيبِكَ وَلا حَقْلَهُ وَلا عَبْدَهُ وَلا أَمَتَهُ وَلا ثَوْرَهُ وَلا حِمَارَهُ وَلا كُل مَا لِقَرِيبِكَ)[3].

الوصايا لا تطبق، وليس بمطلوبٍ تطبيقها على غير اليهود من بني إسراءيل، بل إن تفسير الوصايا ذهب إلى أبعد مما كان متبعاً في مصر فرعون ما قبل أخناتون، وما بعده بكثير من عنصرية وفوقية وتمييز: يسمح لليهودي استغلال ومراباة غير اليهودي والاستيلاء على ممتلكاته وعرضه وأرضه أيضاً. وبما أن لحم الميتة والجثة غير الطاهرة ضارة بالإنسان وصحته وحُرِّمَ تناولها إلهياً من قبل أي إنسان بغض النظر عن ديانته، لأنها تسبب له الأمراض والأضرار والموت أحياناً، لم يكن هناك أي مانع تعبدي يهودي من إطعامها للغريب (الغويم) لإيقاع الضرر به وأذيته، فالأمر هنا إلهي بإيذاء الأجانب.

أولئك الذين كانوا أصحاب الأرض الشرعيين جعلتهم ديانة التوحيد (يهوذا) أجانب وأغراب (تُعْطِيهَا لِلغَرِيبِ الذِي فِي أَبْوَابِكَ)! من البشر ذوات المراتب الدنيا، والمطلوب توراتياً استعبادهم أبد الدهر.

١- العهد القديم سفر التثنية 23: 19-20.
٢- العهد القديم سفر التثنية 14: 21.
٣- العهد القديم سفر التثنية 5: 21.

(۞حِينَ تَقْرُبُ مِنْ مَدِينَةٍ لِتُحَارِبَهَا اسْتَدْعِهَا لِلصُّلحِ ۞فَإِنْ أَجَابَتْكَ إِلى الصُّلحِ[1] وَفَتَحَتْ لكَ فَكُلُّ الشَّعْبِ المَوْجُودِ فِيهَا يَكُونُ لكَ لِلتَّسْخِيرِ وَيُسْتَعْبَدُ لكَ)[2]. أيُّ إله صاحب هذه المُثل التي تشرع الغش والقتل والإبادة والعبودية. هو إله سفاح قبلي عنصري لا يستحق العبادة والتسبيح والطاعة، وهو الإله المتواجد داخل العقلية العبرانية الصهيونية والاستعمارية الإمبريالية فقط.

- ألم تهدد مصر (عبد الناصر) بوجوب تسليم قناة السويس عام 1956 من قبل الاستعماريتين بريطانيا وفرنسا ثم قامتا بالعدوان الثلاثي والاحتلال لبور سعيد وقناة السويس المصرية؟
- ألم تهدد الولايات المتحدة الأمريكية (جورج دبليو بوش) العراق وشعبه بوجوب تسليم البلاد له ولأتباعه، وخروج قيادتها منها مستسلمة، وإعادة العراق وشعبه إلى القرون الوسطى، ونهب ثرواته ومصادرتها، وتشريد أهله منه، واغتيال واستعباد الباقين منهم؟
- أليس هذا تنفيذاً مخلصاً لأمر إلهي مُدّعى اعتمد عليه المتوحشون العابرون إلى فلسطين بهدف إبادة سكانها؟ أليس هو إخلاص وتنفيذ لما جاء في القول التوراتي (يَكُونُ لكَ لِلتَّسْخِيرِ وَيُسْتَعْبَدُ لكَ)؟
- المنطق الوثني الصهيوني أضاف أقوالاً توراتية جديدة وأغناها أتباعه بالدعم والمساندة من الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها: دعاة حقوق الإنسان في الغرب، وشكّل له الميثاق العالمي الجديد لحقوق الإنسان اليهودي!

فلسان حالهم يقول: (إذا استعبدت واستوطنت وسلبت حرية الشعب الفلسطيني وأرضه، واستدعيته للمفاوضات العبثية وأنت تعلم أنك بها كاذب ومخادع، ولم يستجب لك ولشروطك المذلة حاصره واقطع عنه كل أسباب الحياة والبقاء لتفنيه في أرضه مع أطفاله ومرضاه وجرحاه وأسراه، حتى يعلم ويقرّ لك أنك أنت شعبي المختار، وأن أرضه هي لك مني أرض ميعاد. فإذا جاع وعطش ومرض وهزل لا تفك عنه حصارك، ولا تغثه، بل بطائرات أمريكا ودباباتها

١- عبارة الصلح هنا وبالمفهوم الصهيوني تعني الاستسلام والرضوخ لمطالب اليهود الصهاينة. وهذا ما يفهمه الكيان من عبارة مفاوضات.

٢- العهد القديم سفر التثنية 20: 10-11.

المتفوقة تقصفه وتحتل أرضه وتهجره، كما فعل بك يهوه عقاباً منه على عدم قبول طغيانك وفسوقك وقتلك وصلبك للأنبياء استكباراً وحقداً من دون حق).

في مصر اعتبر خروج بني إسراءيل انعتاقاً من العبودية والتسخير والإذلال والاستكبار الفرعوني الوثني. وفي أرض جلعاد، ضفة نهر الأردن الشرقية، أصبح بنو إسراءيل هم الطغاة المستعبدين المستكبرين الغزاة، لم يقبلوا دعوة موسى، ولم يطيقوا عدالة وأخلاق وأوامر تعاليمها، فسطوا بدواً متوحشين على شعوب كانت مسالمة تعيش في أوج تقدمها ومدينتها وحضارتها وتنظيمها، فدمروا بنيانها وسطوا على أسس تقدمها وخيراتها ونهبوا ونسبوا تراثها إلى تراثهم وثقافتها وتاريخها لهم ولرواياتهم العبرية. وفي العهد القريب، وكما استخدموا الأعذار بطغيان الفرعون عليهم، استخدموا الأسلوب ذاته المتجذر في أعماق نفوسهم وعقيدتهم، المحرقة النازية البشعة التي ارتكبتها أوروبا الغربية على يد أحد أقطابها وجلاديها (النازية العنصرية) بحق مواطنيها الغربيين من اليهود، لتكون عذراً ومبرراً وسبباً لتهجيرهم واستغلال التعاطف الإنساني معهم، ليشكلوا وطناً خاص بهم، وليرتكبوا الفعل النازي القبيح ذاته بحق الإنسانية، وليطبقوا محرقة أخرى أكثر دموية وبشاعة بحق شعبٍ آخر حلّوا ضيوفاً عليه، فشردوا من استضافهم قادة وساسة على أرض وطنه ومولد أجداده، فتحول شعب فلسطين على يدهم ويد الغرب إلى فلول من لاجئين، ولتصبح هذه الدولة قاعدة عدوانية للغرب تمارس عدوانها على كل شعوب المنطقة.

- يقول يان أسمان واصفاً قصة الخروج من مصر: «إن إله تحرير الإنسان من العبودية المصرية أو من أي عبودية أخرى هو القانون. وأنا أرى ذلك مثلما يراه نقادي، على أن الموضوع هنا لا يتعلق بالدرجة الأولى بتأسيس دولة بقدر ما يتعلق مبدئياً بالتخلص من الدولة وتكوين مجتمع بلا دولة، وبقدر تعلقه بالتخلص من الدولة. ويبدو هذا الدافع المعادي للدولة في قصة على شكل معارضة لمصر، لأن مصر تعتبر عريقة بالدولة، وهي دار للعبودية وليست بلد عبادة أوثان. كما إن السياسة الخاطئة وليس الدين الباطل هي التي جعلت إسرائيل تعتزل مصر من خلال الخروج منها وتحالفها مع يهوذا. السياسة الخاطئة هي التكبر الفرعوني، وسلطتها

في الاضطهاد والعبودية واغتصاب الحقوق والإهانة. أما من يرى أن القانون حملاً ثقيلاً والتزاماً، فيمكن أن يقال له: تذكر أنك كنت عبداً في مصر. وإذا نظرنا إلى التوحيد من الداخل ومن جهة نظر توراتية لوجدناه أصلاً وبالدرجة الأولى دين التحرر من الاضطهاد المصري، وتأسيس نظام بديل للحياة تنعدم فيه سيطرة الإنسان على الإنسان، ويعيش البشر فيه منسجمين في ظل الحرية، وذلك بتحالفهم مع سلطة الإله الواحد، وتظهر التوحيدية في تأسيسها في التصوير القصصي للخروج من مصر كحركة معارضة مسندة من قبل الإله، في الوقت الذي يتحرر فيه الإنسان من فرعون واضطهاده المذل)[1].

يوضح أسمان أن الخروج من مصر كان حركة سياسية تحررية معارضة لنظام دولة يقوم بالاستبداد والطغيان يقوده طاغية متجبر، وليست حركة معارضة لنظام وثني متناقض مع الديانة التوحيدية، لأنه لو كان الأمر كذلك لتم الخروج من مصر بعد سقوط نظام التوحيد وفشل ثورة العمارنة الأخناتونية، فالتحالف مع يهوذا، ويقصد أسمان (ابتداع اسم لليهود والإله يهوه)، إنما تم بعد الخروج إلى سيناء الحرية، وهناك فقط تم التحالف والعهد مع الإله ومع موسى. ويشير أسمان بعبارة مهمة إلى الانقلاب على العهد وعلى موسى وإلهه، وعلى الطغيان الذي مارسه بنو إسراءيل بحق الشعوب التي دخلوا إليها تدميراً لنظام الدولة والقانون بقوله: (تذكر أنك كنت عبداً في مصر)، فلا تستعبد ولا تستكبر فتطغى!

إذاً، فالقصة متعقلة بالخلاص من القانون والدولة، ثم التحول لإقامة كيان ودولة مهما يكن إلهها وطريقة الاعتناق الديني فيها، فمصر عريقة في النظام والدولة، ولا يمكن تأسيس دولة فيها، ولا بد من استضعاف شعوبٍ أخرى، هذا ما لاحظه موسى وكان موضع تكذيب وعناد وإيذاء، لأن دعوته لا تتناسب والغاية المرجوة والمبيتة من القبول بها دون تعديلها وتحريفها. فلو كان توحيد الإله الواحد ورفض الوثنية هو الغاية والهدف، فلِمَ البقاء في الفردوس المصري (الدلتا) لمدة طويلة مكث فيها يعقوب وأولاده وأحفاده (430) عاماً، وفي أخصب بقعة من أرض مصر تكرم بها الملك المصري على آل يعقوب أثناء فترة لجوئهم

١- يان أسمان: التمييز الموسوي ص 60.

من كنعان إلى مصر؟ لو كان الخروج منها هادفاً لحمل رسالة التوحيد ومعارضة للوثنية، فلم البقاء هناك (430) عاماً لم تستطع خلالها القبيلة العبرية تقديم الولاء والتبعية والمواطنة إلى أرض مصر، على الرغم من كرمها وحسن ضيافتها؟

(۞فَقَالَ فِرْعَوْنُ لِيُوسُفَ: قُلْ لإِخْوَتِكَ: افْعَلُوا هَذَا. حَمِّلُوا دَوَابَّكُمْ وَانْطَلِقُوا اذْهَبُوا إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ. ۞وَخُذُوا أَبَاكُمْ وَبُيُوتَكُمْ وَتَعَالُوا إِلَيَّ. فَأُعْطِيَكُمْ خَيْرَاتِ أَرْضِ مِصْرَ وَتَأْكُلُوا دَسَمَ الأَرْضِ. ۞فَأَنْتَ قَدْ أُمِرْتَ... ۞...لأَنَّ خَيْرَاتِ جَمِيعِ أَرْضِ مِصْرَ لَكُمْ)[1].

(۞...فَقَالُوا لِفِرْعَوْنَ: «عَبِيدُكَ رُعَاةُ غَنَمٍ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا جَمِيعاً». ۞وَقَالُوا لِفِرْعَوْنَ: جِئْنَا لِنَتَغَرَّبَ فِي الأَرْضِ... ۞فَقَالَ فِرْعَوْنُ لِيُوسُفَ: أَبُوكَ وَإِخْوَتُكَ جَاءُوا إِلَيْكَ. ۞أَرْضُ مِصْرَ قُدَّامَكَ. فِي أَفْضَلِ الأَرْضِ أَسْكِنْ أَبَاكَ وَإِخْوَتَكَ. لِيَسْكُنُوا فِي أَرْضِ جَاسَانَ. وَإِنْ عَلِمْتَ أَنَّهُ يُوجَدُ بَيْنَهُمْ ذَوُو قُدْرَةٍ فَاجْعَلْهُمْ رُؤَسَاءَ مَوَاشٍ عَلَى الَّتِي لِي)[2].

(۞ثُمَّ قَامَ مَلِكٌ جَدِيدٌ عَلَى مِصْرَ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ يُوسُفَ. ۞فَقَالَ لِشَعْبِهِ: هُوَذَا بَنُو إِسْرَائِيلَ شَعْبٌ أَكْثَرُ وَأَعْظَمُ مِنَّا. ۞هَلُمَّ نَحْتَالُ لَهُمْ لِئَلاَّ يَنْمُوا فَيَكُونَ إِذَا حَدَثَتْ حَرْبٌ أَنَّهُمْ يَنْضَمُّونَ إِلَى أَعْدَائِنَا وَيُحَارِبُونَنَا وَيَصْعَدُونَ مِنَ الأَرْضِ». ۞فَجَعَلُوا عَلَيْهِمْ رُؤَسَاءَ تَسْخِيرٍ لِكَيْ يُذِلُّوهُمْ بِأَثْقَالِهِمْ فَبَنُوا لِفِرْعَوْنَ مَدِينَتَيْ مَخَازِنَ: فِيثُومَ وَرَعَمْسِيسَ)[3].

(وَأَمَّا إِقَامَةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّتِي أَقَامُوهَا فِي مِصْرَ فَكَانَتْ أَرْبَعَ مِئَةٍ وَثَلاَثِينَ سَنَةً)[4].

هذه الرواية العبرانية لا تخفي أساليب اللف والدوران والتسويغ وتغييب الحقائق بأسلوب بدائي وغير مقنع ومكشوف: كرم وفادة واستقبال عظيم ليعقوب وبنيه، واحترام يجعل من طلبات يوسف الصديق أوامر! هبة عظيمة أرض جاسان (الأرض التي باركنا فيها) أخصب وأجود أرض في مصر، وعندها كان الفرعون متسامحاً ومحباً، وبعدها حقبة حكم الملك أمنحوتب الثالث. وقد تكون حقبة حكم السلالة الثامنة عشر، وحقبة (أمنحوتب الرابع أخناتون) الملك الموحد، الحقبة التوحيدية من حياة مصر الفرعونية والحقبة ذاتها التي أقام فيها

١- العهد القديم سفر التكوين 45: 17-20.
٢- العهد القديم سفر التكوين 47: 3-6.
٣- العهد القديم سفر الخروج 1: 8-11.
٤- العهد القديم سفر الخروج 12: 40.

بنو يعقوب، تنتهي هذه الحقبة بقمع ثورة أخناتون التوحيدي وتنقلب الأمور رأساً على عقب أمام بني يعقوب وأحفادهم. لماذا لم تشر الرواية التوراتية إلى هذه الحقبة المهمة من تاريخ بني إسراءيل هناك؟ ولِمَ لَمْ تشر كذلك إلى حقبة الملوك العرب العموريين السوريين (الهِكسوس)، ومنذ زيارة النبي إبراهيم لهم ومن بعده النبي يوسف؟

تعتم الرواية الكتابية عليها بعبارة لا تخفي انتحال العذر. وتقوم بتغييب متعمد لواقع يكشف أبعاد القصة الحقيقة: (ثُمَّ قَامَ مَلِكٌ جَدِيدٌ عَلَى مِصْرَ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ يُوسُفَ)[1]!. هذا الملك تدعي الرواية الكتابية أنه خشي عظمة بني إسراءيل بقوله: (❁...هُوَذَا بَنُو إِسْرَائِيلَ شَعْبٌ أَكْثَرُ وَأَعْظَمُ مِنَّا. ❁...إِذَا حَدَثَتْ حَرْبٌ أَنَّهُمْ يَنْضَمُّونَ إِلَى أَعْدَائِنَا...)[2]. مصر الإمبراطورية العظيمة، وفرعون صاحب الفتوحات ما بين الفرات والنيل ينظر بحسد وغيرة لعظمة شعب إسراءيل، الذين قالوا لفرعون عبيدك وآباؤنا رعاة غنم جئنا لنغترب. وكما قال يان اسمان: (مصر عريقة بالدولة). وقال سيمسون نايوفيتس عنها: (أول دولة ونظام حكم في العالم). وكرر أسمان قول: (التخلص من الدولة). هذه الدولة ومليكها يخشون بني إسرائيل بالقول: (شَعْبٌ أَكْثَرُ وَأَعْظَمُ مِنَّا)؟.

- هل شعر المصريون بأن ورثة يعقوب يتآمرون مع الغزاة المفترضين لإقامة دولة داخل الدولة؟
- وهل عامل أحفاد يعقوب مصر بالإساءة إليها كمن شرب من بئر ورمى فيه حجراً ليكرر أحفاد يعقوب فعلة آبائهم بغدر أخيهم يوسف كما فعلوا في الماضي؟!، أم هو التبرير العبراني للانتقال إلى أرض كنعان وفلسطين لإقامة كيان بديل عن الإقامة في مصر، من خلال حبك رواية درامية سميت بالخروج من العبودية تحت وصايا وأوامر الرب والدعوة التوحيدية؟

هذه القصة المشابهة لقصة خروج وحرب (الملوك الرعاة الهِكسوس) من الدلتا يتوافق تاريخ حدوثها مع القصة الكتابية الغامضة للقصة المروية في سفر الخروج.

١- العهد القديم سفر الخروج 1: 8.
٢- العهد القديم سفر الخروج 1: 9-10.

يقول يان أسمان: (ومن يقول إن الأخلاق والدين ليست لهما علاقة مترابطة بطبيعتهما، فهو يدّعي وجود أخلاق من دون دين، وقد أدى هذا الادعاء الذي قام به بايله عام 1700م إلى موجة استياء شديدة. وقد نقض حتى فولتير هذه الفرضية حينما قال: إذا لم يكن الإله موجوداً فعلينا اختراعه، وذلك لعدم إمكانية تحقيق العدالة على الأرض من دونه، ولكن المسألة لا تزال إلى اليوم تشكل نقطة النزاع، كما إن فرضية اعتبار الحق والأخلاق من الأمور الدنيوية، وليست من الأمور السماوية، ما زالت تثير في الأوساط اللاهوتية بين الحين والآخر بلبلة عميقة)[1].

أعود للقصة المثيرة للأمير الموحد أخناتون لاستعراض الأصل في حركة العمارنة الأولى المتبنية لنظام الإله الواحد ونبذ نظام تعدد الآلهة، واحتمال أن تكون (الملكة تا، تي) زوجة ثانية للملك أمنحوتب الثالث والد الأمير أخناتون، والذي يشير البحث إلى وجود أخ غير شقيق له. يقول سيمسون: (واتخذ أمنحوتب الثالث خطوة غير عادية تتعلق بعدم استخدام اسم ولادته (اسمه الثاني) - أمون راض إلى أمون. وكان قصره الفاخر في ملقطة، ووحدة ممتازة في جيشه، والمركب الملكية، ويا (الخاصة بزوجته) تي، جميعها تسمى (آتون يومض) أو قرص الشمس المتألق. وكان يشار أحياناً إلى أمنحوتب نفسه على أنه (قرص الشمس المتألق)، ورعى كذلك أمنحوتب الثالث المعابد والأقاصير لآتون، ولكن من المؤكد أنه في سنوات حياته الأخيرة لم يعارض قرار ابنه وربما شريكه على العرش أمنحوتب الرابع الذي سيصبح أخناتون، في بناء أربعة معابد لآتون، أو ربما (مكان لقاء آتون)[2] في الكرنك بجوار معبد آمون، بما في ذلك (جم باآتون) (آتون موجود في عالم آتون)، أو ربما (مكان لقاء آتون). لم يكن أمنحوتب الرابع قد سمي أخناتون بعد، ولم يصبح ابن الإله الواحد (آتون)، ومع ذلك كان قد قطع شوطاً طويلاً في إزعاج كهنة آمون أصحاب النفوذ حيث شرع في الثورة الآتونية، بل بذر بذور ثورته آمون رع المضادة في المستقبل، بعد ذلك بدأ تثوير عبادة أبيه (آتون)، حيث حول آتون من مجرد إله قرص الشمس المرئي وأحد أوجه رع، إلى إله الشمس المعلن، ومنح أخناتون الذي لا شك أنه تزوج من نفرتيتي (حمت نيسوت ورت) (الزوجة - الملكية الكبرى)، حيث أصبح شريكاً على العرش وأعطى زوجته اسماً إضافياً وأوضح صلتها بآتون. وأحبها أخناتون وأظهر تقديره الكبير لها: نفرنفرتوآتون (جميلة جميلات آتون)، أو ربما (كامل هو جمال آتون)، أو (تامٌ هو جمال آتون). وحدد آتون الجديد عبادة قرص الشمس الخفي التي اخترعها أخناتون وجرى تكريسها في مدينته المقدسة (أختيتاتون)

١- يان أسمان: التمييز الموسوي ص 66-67.

٢- آتون: اسم الإله الواحد (رع) المتجسد في قرص الشمس، والنقيض والبديل للإله (آمون) متعدد الآلهة ما قبل الثورة الإصلاحية الدينية للأمير أخناتون وديانته التوحيدية الجديدة.

رع هو أختي باعتباره إلهاً ومفهوماً عالميين للشمس مع تجسيد ضوء الشمس وإله الجو بين الأرض والسماء (شو). وجرى رفع مبدأ شو (ضوء الشمس، أشعة الشمس) إلى الواقع الجوهري للكون والحياة. وأبقى أخناتون كذلك على المفهوم الأساسي لماعت (الحكم بناءً على الحقيقة، التوافق الكوني الأزلي). كما استوعب الوضع الإمبريالي العالمي الذي بلغته قوة مصر وآلهتها، ولا سيما آمون رع، مع تكون الإمبراطورية التي أرسى دعائمها تحتمس الثالث قرابة (1479-1425). وأضاف مفاهيم الإخاء. وتبنى أخناتون مبدأ العالمية السياسية واللاهوتية لآمون رع وغيره من الآلهة في النوبة وآسيا. ها هو أخناتون يشيد المعابد لآتون في عمق النوبة في مدينة جم آتون بالقرب من كاو، وفي سوريا في موقع لا يزال مجهولاً)[1].

بناءً على المعلومات والحقائق التاريخية التي سبق ذكرها، لا سيما ما يتعلق بالإمبراطورية المصرية التي امتد نفوذها من بلاد النيل إلى بلاد الفرات في زمن تحتمس الثالث ما بين (1479-1425ق.م)، التي يتصادف أيضاً تاريخها مع التواريخ الكتابية (معجم التواريخ في الكتاب المقدس)، الذي يعتبر تاريخ الخروج من مصر على وجه التقريب (1250ق.م)، بينما يعتبره فرويد وغيره من الباحثين بالشؤون الكتابية قد حدث تقريباً في العام (1300ق.م)، وهو تاريخ أقرب للحقيقة، وبفرضية اعتماد التواريخ الكتابية (1250ق.م)، فإقامة بني إسرائيل بمصر استمرت لـ (430عاماً) بحسب ادّعاء الرواية التوراتية، فإذا احتسبنا مدة الإقامة وأضفنا إليها سنة الخروج فسنصل إلى نتيجة مفادها أن بني إسراءيل (يعقوب) كانوا متواجدين في دلتا النيل المصرية عام (1680ق.م). وهي كالتالي 430 إقامة +1250سنة الخروج = 1680ق.م. وبما أن عصر أخناتون ما بين (1364-1347ق.م)، فبأي حال يكون بنو يعقوب قد عاصروا أخناتون الموحد وبقوا لما بعده في دلتا النيل إلى مدة أكثر من (150) عاماً؟

كما إنهم عاصروا حروب تحتمس الثالث لاسترداد سلطته عند نهر الفرات، التي اقتبسوها ودونوها في التوراة ونسبوها إلى الملك داود[2]، فلِم إذاً تم إغفال هذا الحدث التوحيدي البارز في التاريخ المصري وحياة بني إسراءيل في مصر؟!

١- سيمسون نايوفيتس: مصر أصل الشجرة - ج2 ص 172-186 بتصرف.
٢- راجع العهد القديم سفر الملوك الأول.

وتتوافق تواريخ إقامتهم أيضاً بمصر مع التواريخ الكتابية والبحثية الأخرى لعصر (الملوك الرعاة)، أو ملوك البلاد الآسيوية الأجنبية (الخاسوت)، وهي قرابة (1775-1550ق.م)، والذين سموا (بالهكسوس)، وقام بطردهم من أرض الدلتا أحد الملوك المصريين إلى حدود سوريا، وقامت معركة كبيرة في منطقة مجيدو (المجد)، التي سميت بهذا الاسم تمجيداً لانتصار المصريين عليهم هناك. ومن المعروف تاريخياً وأثرياً أنهم كانوا خليطاً من العموريين والخبيرو (العبيرو) العبرانيين والبدو سكان الرمال والرعاة والكنعانيين. هذه التواريخ المتناقضة والمغفلة تدعو للشك والريبة، وتدفع باتجاه الاعتقاد بالانتحال والتحريف داخل النص التوراتي، وتضع العديد من الإشارات وعلامات الاستفهام حول صحة الرواية الكتابية التوراتية، ولا سيما قصة الخروج!

إذاً، كانت الغاية الحقيقية من هذا الاقتباس والتدوين خلق قصة وتاريخ وأنشودة وطنية قومية تحاول جمع قبائل متعددة ومختلفة حول رواية ومجد يتخفى وراء عقيدة توحيد وديانة توحيدية وأوامر إلهية!

ونتابع مع سيمسون نايوفتس وثورة أخناتون وديانته التوحيدية الجديدة (الوحدانية للإله الواحد): (ولكن بحلول العام الخامس أو السادس على أقل تقدير من عهد أخناتون كان قد بلغ الكمال الثوري في لاهوته الآتوني، فقد رفض المفهوم المصري الأساسي الخاص بالتعدد. وكان آتون الواقع الإلهي الوحيد. وكان ضياء شمسه (أشعته) المبدأ الفريد الذي يستند إليه كل شيء في الحياة. وهاهو يوجد إله واحد، ومبدأ تفسيري واحد رفض سائر الآلهة والإلهات، بأشكالها الفردية أو المركبة، مع أن هذا الأمر لا يزال من دون إثبات. فربما كان في ذلك الوقت قد أغلق أخناتون كل المعابد المكرسة في مصر لآلهة غير آتون، وشرع في سياسة واسعة النطاق لتدمير تماثيل آمون وكشط اسمه في كل مكان، فلابد أن ننظر إلى لاهوت أخناتون على أنه ثورة وتراكم لعملية طويلة. وخلاصة القول: إن أخناتون قفز قفزة نحو توحيد الشمس الأحادي الأول لم يقفزها كهنة هيليوبليس وطيبة على نحو كبير بنسقيها الخاصين بـ رع وآمون رع لم يكملها أبوه بتفضيله لآتون، ولكن تظل هناك أسئلة أساسية: هل كان آتون أول إله توحيدي[1]، وقريباً من الإله العبراني القدير شبه التوحيدي المبكر وتوحيد يهوه العبراني المتأخر؟ هل كان آتون إلهاً توحيدياً على النمط العبراني أو الإسلامي اللاحق، أم هو توحيد متعدد الأشكال على النمط المسيحي؟ إلى أي حد كان آتون مختلفاً عن سائر الآلهة؟ إلى أي

١- المقصود هنا بالإله التوحيدي القدير المبكر (شبه التوحيدي) من جهة نظر سيمسون هو الإله الإبراهيمي الذي آمن به إبراهيم الخليل؛ إلهاً قديراً لا شريك له.

حد كان آتون نمطاً جديداً كل الجدة من الإله، وهو الإله المجدد الأصيل الذي كان أكثر من مجرد الشمس المادية؟

لا تغير الشكوك المشروعة بشأن وحدانية آتون التامة الحقيقية أن أخناتون ألمح على أقل تقدير إلى شيء مهم بشأن الوحدانية الإلهية؛ كان ذلك قبل 800 عام من إعلان النبي العبراني إشعيا له على نحو لا لبس فيه ولا غموض. ويبدو من المؤكد أنه لأول مرة في التاريخ يستخدم مفهوم أوحد (ضوء الشمس) (شو)، لتغيير شيء بالوجود مثلما استخدمت الإرادة القديرة ليهوه العبراني فيما بعد للغرض ذاته)[1].

الأسئلة الاستفهامية التي طرحها سيمسون بما يتعلق بالوحدانية الإلهية والتشابه بين دعوة النبي إشعيا لإله واحد وحاسم لا لبس فيه، والذي صحح من خلاله مسار بني إسراءيل أو حاول بعد انحراف صارخ عن إله موسى وتوحيده الأصيل، والإشارة إلى النمط المسيحي في تعددية الآب والابن؛ هذه الأسئلة على الرغم من إعطائه جواباً ضمنياً عنها، عاد ليؤكد أن أخناتون قد ثبت مفهوم التوحيد للإله الواحد أولاً (أي قبل العبرانيين).

لابد من العودة للحكاية الكتابية لعلنا نجد فيها أجوبة وأمثلة عما جرى التطرق إليه ووُضِعَت إشارات الاستفهام حوله؛ ومن العهد القديم سفر إشعيا، وهو من الأنبياء المتأخرين: (۞اِسْمَعِي أَيَّتُهَا السَّمَاوَاتُ وَأَصْغِي أَيَّتُهَا الأَرْضُ لأَنَّ الرَّبَّ يَتَكَلَّمُ: «رَبَّيْتُ بَنِينَ وَنَشَّأْتُهُمْ أَمَّا هُمْ فَعَصُوا عَلَيَّ. ۞اَلثَّوْرُ يَعْرِفُ قَانِيهِ وَالْحِمَارُ مِعْلَفَ صَاحِبِهِ أَمَّا إِسْرَائِيلُ فَلاَ يَعْرِفُ. شَعْبِي لاَ يَفْهَمُ». ۞وَيْلٌ لِلأُمَّةِ الْخَاطِئَةِ الشَّعْبِ الثَّقِيلِ الإِثْمِ نَسْلِ فَاعِلِي الشَّرِّ أَوْلاَدِ مُفْسِدِينَ...)[2].

بلا لبسٍ أو غموض يشير النبي إشعيا هنا لارتداد بني إسراءيل ومن معهم عن عبادة الإله الواحد إله موسى وإبراهيم (صلى الله عليه وسلم) إلى عبادة آلهة محلية وشعبية ووطنية لا علاقة لها بالتوحيد ودعوة الهداية ودين الحق، لذلك بشرهم الإله بالعقاب والسبي والخراب والمذلة، فالله يقرأ الأعمال والنوايا ويحاسب عليها.

لم أستدل على أي ذكر ليهوه من الإصحاح الأول وحتى الإصحاح السادس والستون من سفر إشعيا، ولا في السفر الذي يليه: سفر إرميا، حيث يذكر بدلاً منه عبارة (الرب) أنا الرب. ويبدو حدوث التطوير والتحول شيئاً فشيئاً من اعتماد الإله يهوه إلى تبني الإله الواحد الشامل للكون، مع ملاحظة أن الزمن الذي يفصل بين الحدثين أكثر من ثمانمئة عام!

١- سيمسون نايوفيتس - مصر أصل الشجرة - ج2 ص 174-175، 177-187 بتصرف.

٢- العهد القديم سفر إشعيا 1: 2-4.

وفي هذا الشأن يصر بعض الكتاب والباحثين، لا سيما الغربيين منهم، على الإشارة إلى أن تسمية الرب المعدلة مقصود بها يهوه، فيشيروا في أبحاثهم إلى (يهوه) خلافاً للنسخة العربية التي اعتمدتها، والصادرة عن دار العالم العربي للكتاب المقدس، التي تستبدل اسم يهوه باسم الرب في مراحل متقدمة من الرواية.

أما الإشارة التي أشار فيها سيمسون للتعددية في نمط العبادة المسيحي، فلابد من الإقرار بوجود اختلاف في شكل الاعتقاد والتفسير وفهم الآخر له في هذه النقطة بالذات ما بين المسيحية وبين اليهودية والإسلام، مع الإقرار بإيمان الديانات التوحيدية الثلاثة بالإله الواحد الخالق لكل شيء. ويكرس القرآن الكريم هذا الإيمان بوجوب الإيمان بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، ولا يفرق بين أحد منهم. ونبقى في موضوعنا الرئيس في هذا الفصل: توحيد أخناتون. من الحقائق الدالة على توحيد إله واحد ترنيمة أخناتون: (أيها الإله الواحد الذي لا إله غيره! لقد فطرت الأرض حسب مشيئتك وحدك، وخلقت كل الشعوب والقطعان والأسراب، وكل ما يمشي على أرجل على الأرض، وكل ما يطير بجناحين في الأعالي، وأنشأت أراضي خور (سوريا وكوش النوبة وأرض مصر)، ووضعت كل إنسان في موضعه، وأنت من يقضي حوائجهم)[1].

لا أدّعي أن مزامير النبي داود (صلى الله عليه وسلم)، لا سيما المزمور رقم 104، قد نقلت وعدلت عن أنشودة أو ترنيمة أخناتون، لأدلل على صوابية الآراء والنقد التي عبّر عنها الكثير من الباحثين والمتخصصين بدراسة العلوم الكتابية والأثرية التي أشارت إلى كثير من النصوص الكتابية التي اقتبست من الثقافات والحضارات والديانات التي عاش مدونو العهد القديم بينها، وأنها نقحت وعدلت لتتماشى والادّعاء اللاهوتي اليهودي. وكان ذلك بعد أزمان طويلة من حدوثها ووقوع أحداثها وأساطيرها.

لكنني أشير هنا إلى التشابه والتطابق الكبير في نمط التعبد والمعتقد بينها وبين الثقافات المصرية والبابلية والكنعانية والفارسية. ويرجع الباحث والأستاذ في علم اللاهوت في جامعات كوبنهاغن، توماس طمسن، هذا التشابه إلى الخلط بين التاريخ واللاهوت، ويشير إلى تاريخ إسرائيل القديم على أنه تاريخ لاهوتي لا علاقة له بالتاريخ الحقيقي ودراسات التاريخ، وأن اختلاط الخارجين من مصر والذين دخلوا كنعان على شكل موجات سلمية متعاقبة بالشعوب التي دخلوا إليها، وبفعل العوامل الطقسية المناخية وطبيعة شرق البحر المتوسط، وهي العوامل التي أدت إلى تلك الهجرات وهذا الاختلاط وهذا الاقتباس والتبني، وحصار أريحا الكنعانية وهدم أسوارها وحرقها بالنار لم يحدث قط؛ وأن اللاهوت لا ينتمي لدراسة التاريخ وعلم طبقات الأرض وعلم الآثار بأي

1- LICHHEIM MIRIAM - ANCIENT-Egyptian.LITERATURE VOLU-ME II.P89.

صلة. لنقارن ما بين المزمور 104 وترنيمة أخناتون التي تسبقه بأكثر من أربعمئة عام على الأقل: (۞بَارِكِي يَا نَفْسِي الرَّبَّ. يَا رَبُّ إِلَهِي قَدْ عَظُمْتَ جِدّاً. مَجْداً وَجَلاَلاً لَبِسْتَ. ... ۞الْمُؤَسِّسُ الأَرْضَ عَلَى قَوَاعِدِهَا فَلاَ تَتَزَعْزَعُ إِلَى الدَّهْرِ وَالأَبَدِ... ... ۞تَسْقِي كُلَّ حَيَوَانِ الْبَرِّ. تَكْسِرُ الْفِرَاءُ ظَمَأَهَا. ۞فَوْقَهَا طُيُورُ السَّمَاءِ تَسْكُنُ... ۞...مِنْ ثَمَرِ أَعْمَالِكَ تَشْبَعُ الأَرْضُ. ۞الْمُنْبِتُ عُشْباً لِلْبَهَائِمِ وَخُضْرَةً لِخِدْمَةِ الإِنْسَانِ... ۞تَشْبَعُ أَشْجَارُ الرَّبِّ أَرْزُ لُبْنَانَ الَّذِي نَصَبَهُ... ۞تُشْرِقُ الشَّمْسُ فَتَجْتَمِعُ وَفِي مَآوِيهَا تَرْبِضُ. ۞الإِنْسَانُ يَخْرُجُ إِلَى عَمَلِهِ وَإِلَى شُغْلِهِ إِلَى الْمَسَاءِ... ۞تُرْسِلُ رُوحَكَ فَتُخْلَقُ. وَتُجَدِّدُ وَجْهَ الأَرْضِ)[1].

وأقدّم هنا مقاربة ومقارنة أكثر دقة للأنماط المتشابهة بين اللاهوت المصري واللاهوت العبراني في محاولة لمعرفة أكثر عمقاً حول فكرة الإله الواحد للمذهب الأخناتوني الرافض لفكرة تعدد الآلهة والعبادات المحلية والإنسانية معاً، وكيف كان الغموض والتهويش يشوب وحدانية الإله يهوه باعتباره إلهاً إلى بني إسرائيل، وليس الإله العالمي من خلال نموذج إله يبحث عن شعب، فيلبي مطلبه ويقضي حاجته، وبين شعب يبحث عن إله يكون معه موعده وميثاقه دون غيره من الشعوب الأخرى التي هو خالقها، هذا إن كان هذا الإله هو إله إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب ويوسف وموسى!

يشرح سيمسون هذا الموضوع بقوله: (كانت فكرة الإله العالمي الودود أكثر تقدماً في هذا الخصوص من فكرة إبراهيم وموسى اللاحقة الخاصة بالإله القومي الواحد، مع ذلك فإن كلاً من أخناتون ومن بعده بمئة وخمسون عاماً موسى كان يرى أن هناك خالقاً (فرداً) لكل البشر والأشياء في الكون: هو آتون أو يهوه. وكان حكم أخناتون بأن يكون آتون إلهاً واحداً ليس معه إله آخر يتسم بالغموض في السياق الذي خلفه، حيثُ استوعبَ آتون رع، حور أختي و (شو) الذي هو آتون وإشاراته المتكررة إليهما، لا سيما في السنوات الأولى من عهده. وبالنسبة لموسى، فليس من الواضح إذا كان يهوه هو الإله الواحد في الكون، أم هو الإله الأقوى في الكون. ولا يبدو أن مفهومي الوحدانية الحقيقية والتوحيد العالمي الودود على النمط الآتوني ظهر في إسرائيل قبل القرن السادس قبل الميلاد، مع مجيء النبيين إشعيا وإرميا. وقد ظهر في بلاد فارس قبل ذلك بشكل أقل تقدم مع مجيء النبي زرادشت وأتباعه)[2]. يلاحظ التأثير الفارسي ونمط توحيد زرادشت في الأسفار التي كتبت بعد السبي والجلاء إلى بابل، وحتى سقوطها بيد قورش الأخميني الفارسي، وضمن أسفار حزقيال وهوشع ودانيال، وحتى في سفر الرؤيا في العهد الجديد. ويؤشر تبشير الفرس الموحدين لزرادشت

١- العهد القديم المزامير 104: 1-30.

٢- سيمسون نايوفيتس: ج2 ص 183.

بمولد المسيح في إنجيل متى إلى هذا التأثير بشكل لافت وواضح: (۞وَلَمَّا وُلِدَ يَسُوعُ فِي بَيْتِ لَحْمِ الْيَهُودِيَّةِ فِي أَيَّامِ هِيرُودُسَ الْمَلِكِ إِذَا مَجُوسٌ مِنَ الْمَشْرِقِ قَدْ جَاءُوا إِلَى أُورُشَلِيمَ ۞قَائِلِينَ: أَيْنَ هُوَ الْمَوْلُودُ مَلِكُ الْيَهُودِ؟ فَإِنَّنَا رَأَيْنَا نَجْمَهُ فِي الْمَشْرِقِ وَأَتَيْنَا لِنَسْجُدَ لَهُ)[1].

وأرى أنه قبل التعمق أكثر بالجانب المتعلق بأوجه التشابه بين التوحيد الموسوي والأخناتوني (المصريين) من المفيد للبحث والتقصي إشباع الجانب التاريخي المغفل داخل النص الكتابي، والذي يلقي بظلال من الشك والغموض حول حقيقة الكثير من الأحداث الواردة داخل هذا النص، فحدث مهم ومفصلي في تاريخ دلتا النيل وبناء معبد الإله الواحد في سوريا من قبل الملك الموحد أخناتون الذي يسيطر على الإمبراطورية ما بين الفرات والنيل، على الرغم من عدم اكتشافه إلى اليوم، ما كان ليتم تجاوزه سهواً في رواية الكتبة والأحبار، ولا بد أن وراء هذا التجاهل إنكاراً لتواريخ مهمة قصد من تجاهلها تسويق آخر لحكايات لا يمكن تسويقها لو تم الزج بهذه الأحداث داخل هذا النص الكتابي. على الرغم من ذلك، فإن أكثر الكتاب والمتخصصين الكتابيين، ولا سيما الإسرائيليين منهم، لم يستطيعوا رتق الفجوات أو إعطاء التبريرات لتغطية وتبرير هذا الخلل التاريخي الذي انتاب الرواية التوراتية برمتها! وبهذا الخصوص يقول الأستاذ في علم الآثار الكتابية في جامعة تل أبيب (إسرائيل فلنكشتاين)، ومعه الأستاذ المتخصص نيل سلبرمن في كتابهما (التوراة مكشوفة على حقيقتها): (ولكن هناك تشابهاً أكبر صدقاً بين قصة الهكسوس والقصة التوراتية للإسرائيليين في مصر على الرغم من اختلاف القصتين الحاد في اللحن، ويصف ماثيو انتهاء احتلال الهكسوس لمصر بأنه تم أخيراً من قبل ملك مصري مستقيم هاجمهم وهزم الهكسوس وقتل العديد منهم وتابع فلولهم إلى حدود سوريا - ويقولا - إذاً المصادر الأثرية والتاريخية تخبرنا عن هجرات الساميين من كنعان إلى مصر، وعن قيام المصريين بطردهم بالقوة. هذه

١- العهد الجديد إنجيل متى 2: 1-2.

الخلاصة للهجرة والعودة العنيفة لكنعان تتوازى مع القصة التوراتية للخروج الجماعي. ويبقى هناك سؤالان رئيسان: الأول: من هم أولئك المهاجرون الساميون؟ والثاني: كيف يتطابق تاريخ زيارتهم لمصر مع الترتيب الزمني للأحداث التوراتية؟ ويؤرخ طرد الهكسوس عامةً على أساس السجلات المصرية للمدن المحطمة لكنعان بقرابة (1570ق.م). يخبرنا سفر الملوك الأول 6-1 بأن بناء المعبد الذي بدأ في السنة الرابعة من عهد حكم سليمان إنما حدث بعد 480 سنة من حادثة الخروج الجماعي في سنة (1440ق.م)، أي أنه بعد أكثر من مئة سنة بُعيدَ الطرد المصري للهكسوس قرابة (1570ق.م)، وهذا إشكال أكثر جدية أيضاً)[1].

يلاحظ أنه على الرغم من الإضاءة المهمة للباحث الإسرائيلي على جانب من الحقيقة، إلا أنه تبنى محاولة للخروج عن قاموس التاريخ للعهد القديم، اعتبر وحسب ما تخبره التوراة أن الخروج الجماعي قد تم في العام (1440ق.م)، في حين أن القاموس ينسبه إلى تواريخ متأخرة بأكثر من مئة وخمسون عاماً من هذا التاريخ، رغم ذلك تزامن خروج الهكسوس مع وجود بني إسراءيل، ويكون خروجهم بعد أكثر من مئة عام، كما ذكر فنلكشتاين. وعلى الرغم من محاولته ردم الهوة داخل النص بقي سؤاله قائماً: كيف تتطابق هجرتهم إلى مصر مع الترتيب الزمني لدخول وخروج الهكسوس من مصر؟ داخل الرواية التوراتية، ودون الإشارة إلى إغفال الرواية للأحداث برمتها لأن الزج بهذه الأحداث داخل النص سوف يطيح بالرواية التوراتية لقصة الخروج من مصر وما ترتب عليها، هو ما سوف نتوسع فيه في الفصل الرابع.

وإشارةً لما تعرض له الباحث إسرائيل فنلكشتاين حول الإشكالية القائمة في المقاربة والتوافق ما بين تواريخ الخروج من الدلتا المصرية لبني إسراءيل وتواريخ طرد الهكسوس (الملوك الرعاة الآسيويين) كنعانيين وعبرانيين وعموريين وبدو سيناء منها أيضاً. وهذه التواريخ التي يتوافق فيها وجود بني إسراءيل فيها معهم.

١- إسرائيل فلنكشتاين - ونيل سيلبرمن - التوراة اليهودية مكشوفة على حقيقتها ص 89-90.

وبعد إجراء دراسة ومقارنة لقصة الصديق يوسف (صلى الله عليه وسلم) في كل من الروايتين الكتابيتين (التوراة والقرآن) اتضح لنا جلياً أن سفر التكوين وسفر الخروج يكرران مراراً وصف الحاكم بالفرعون، وربما في زلةٍ للكتبة المدونيين تظهر عبارة (ملك) بدلاً من فرعون في مقطعين من خروج 1: 8: (ثُمَّ قَامَ مَلِكٌ جَدِيدٌ عَلَى مِصْرَ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ يُوسُفَ). وذكرت عبارات ملك بدلاً من الفرعون في مقطعين من خروج 1: 15 وفي 1: 17، ثم تعود التوراة إلى وصف الفرعون بعد ذلك!

في الرواية القرآنية يذكر وصف حاكم مصر بـ (الفرعون)، وفي سورة البقرة وحتى قصار السور. ولم تذكر الرواية القرآنية عبارة الفرعون مطلقاً في سورة يوسف تحديداً كوصف لحاكم تلك الحقبة، بل تصفه (بالملك) أربع مرات، إلى جانب وصف (العزيز)، على الرغم من ارتباط قصة يوسف مباشرة بسكنى آل يعقوب في دلتا النيل بمصر؛ هذه المعلومة اللافتة التي لم تغفلها الرواية القرآنية لوقوعها في سياقها التاريخي والجغرافي الصحيح، بالتفريق ما بين الملوك الرعاة الكنعانيين العرب والعموريين وسكان سيناء ومعهم العبرانيين، وما بين سقوط هذه الممالك، وهو أحد أسباب الخروج من مصر، لا سيما بعد سقوط سلطة الفرعون الموحد أخناتون، وهذا يعيدنا أيضاً إلى قصة النبي إبراهيم في سفر التكوين، وزيارته والسيدة سارة إلى مصر في حقبة ما قبل رحيل يعقوب وأولاده إلى هناك، مما يدفع بالحقيقة المغيبة عمداً داخل النص التوراتي، وهي أن إبراهيم الخليل قد حلَّ ضيفاً على ملوك الدلتا المصرية الذين كرموه بتقديم الأميرة العربية هاجر زوجة ومصاهرة له، وهي من بنات الملوك وليست بجارية مصرية كما يدعي كتبة التوراة المحرفين، وهذا ما يدعونا لإعادة قراءة النص التوراتي بما يتطابق مع السياق التاريخي والجغرافي الموضوعي بعيداً عن تحريف وتسييس النصوص التي طالت الرواية الكتابية برمتها في سفر التكوين 37: 25 في وصف إخوة يوسف وكيدهم له: (...ثُمَّ جَلَسُوا لِيَأْكُلُوا طَعَاماً. فَرَفَعُوا عُيُونَهُمْ وَنَظَرُوا وَإِذَا قَافِلَةُ إِسْمَاعِيلِيِّينَ مُقْبِلَةٌ مِنْ جِلْعَادَ وَجِمَالُهُمْ حَامِلَةٌ كَثِيرَاءَ وَبَلَسَاناً وَلاَذَناً ذَاهِبِينَ لِيَنْزِلُوا بِهَا إِلَى مِصْرَ).

الوصف لهذه الأحداث يعود وبحسب التاريخ التوراتي إلى أواخر القرن السابع عشر قبل الميلاد تقريباً، حيث يباع يوسف الصديق في أرض مصر، ولم تكن في ذلك الوقت أي سلطة أو مملكة في أدوم ومؤاب وعمون (جلعاد)، ولم تكن أيضاً قد نشأت أي تجارة على الجِمال من شرق الأردن في تلك الحقبة المبكرة مع

مصر، ولم تكن الجِمال الكبيرة تستعمل في قوافل التجارة عبر سيناء إلا في حقبة سيادة الآشوريين في القرن الثامن تقريباً![1]

وهذه القصص المنسوبة للقرن السابع عشر قبل الميلاد إنما تعود في حقيقتها إلى القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد، وهو تاريخ تقريبي لتدوين الكتبة للتوراة بالآرامية قبل استكمال العبث في قصصها أثناء وجودهم في بابل. هذا التدوين لتواريخ قديمة وربطها بالقصص التوراتية يعود بنا للتحريف التوراتي في سفر الملوك الأول والثاني، وادّعاء الفتوحات العظيمة للملك داود ما بين الفرات والنيل، والمبالغة في عدد المركبات والخيول في وقت لم يكن للخيول أثراً في تلك المنطقة، وكذلك في وقت لا يزال فيه الملك داود يركب على بغلته الملكية شيخاً، والتي نصب عليها ولده سليمان ملكاً على إسراءيل حسب قول الرواية الكتابية: (۞فَقَالَ الْمَلِكُ لَهُمْ: خُذُوا مَعَكُمْ عَبِيدَ سَيِّدِكُمْ، وَأَرْكِبُوا سُلَيْمَانَ ابْنِي عَلَى الْبَغْلَةِ الَّتِي لِي وَانْزِلُوا بِهِ إِلَى جِيحُونَ، ۞وَلْيَمْسَحْهُ هُنَاكَ صَادُوقُ الْكَاهِنُ وَنَاثَانُ النَّبِيُّ مَلِكاً عَلَى إِسْرَائِيلَ...)[2].

لا أزال أستعرض أوجه التشابه بين التوحيد الآتوني المصري والتوحيد الموسوي. نرى هنا وجه ونمط الاعتقاد باعتبار الفرعون في الديانة المصرية إلهاً أرضياً نائباً للإله الواحد وممثلاً لإرادته على الأرض، على الرغم من محاولة أخناتون شطب هذا النمط الفرعوني الذي أخذ في بداياته الأولى مفهوم الأب الإله الأكبر، والابن الوسيط الإله على الأرض، والذي يرد مشابهاً من حيث الآلهة الأرضية بقول الرب لموسى توراتياً: (...جَعَلْتُكَ إِلَهاً لِفِرْعَوْنَ. وَهَارُونُ أَخُوكَ يَكُونُ نَبِيَّكَ)[3]. ويبدو الانتقال الأصولي من الديانة المصرية إلى اليهودية قد استمر بالانتقال إلى المسيحية أيضاً، مثلما نجد في إنجيل متى (...لِكَيْ يَتِمَّ مَا قِيلَ مِنَ الرَّبِّ بِالنَّبِيِّ: «مِنْ مِصْرَ دَعَوْتُ ابْنِي»)[4]، ومع ذلك فقد تم التطور المهم والجذري للاتجاه بالإيمان المسيحي نحو اعتناق حقيقة البعث والقيامة واليوم الآخر

١- في القرآن الكريم سورة يوسف الآية 19 ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾. يفسر علماء التفسير: ابن كَثير وعبد الوهاب النجار، السيارة بالقافلة التي تحمل البضائع دون ذكر أو تأكيد لوسائل النقل المتبعة على الدواب، وهل هي من الجِمال أم من الحمير والبغال وهو الأرجح.

٢- العهد القديم سفر الملوك الأول 1: 33-34.

٣- العهد القديم سفر الخروج 7: 1.

٤- العهد الجديد إنجيل متى 2: 15.

بوفاة المسيح وبعثه من بين الأموات. هذه الأسس والشروط المسيحية ذات القواسم المشتركة مع الإسلام لم تقرها بصراحة الموسوية، كما أطلعنا عليها العهد القديم. وبدا التلميح إليها خجولاً في سفر دانيال في بلاد فارس، هذا السفر الذي يتشابه مع سفر الرؤية في العهد الجديد إلى حد كبير ولافت.

ويبدو أن الموحد المصري الأول أخناتون كان يدرك جيداً أهمية إله الأموات أوزيريس لدى العقيدة والتقاليد المصرية الشعبية، فاستمر في احترامه لهذا المعتقد الشعبي، الذي شكل كتاب الأخلاق المصري (محكمة الأموات). من المؤكد أن نهاية أخناتون غير السعيدة، ونهاية موسى كذلك، ساهمت في اضطهاد الفرعون الذي خلف أخناتون للآسيويين (عبرانيين وكنعانيين ومصريين)، لاعتناق البعض منهم ديانة أخناتون التوحيدية للإله الواحد. وتركز الاضطهاد في أفاريس، رعمسيس، أرض جاسان في دلتا النيل. ويقول سيمسون بشأن إله الأموات المصري والإله الأعلى حورس: (ومع أنه من المفروض أن إله الناس هو أخناتون نفسه، فلم يقضي قضاءً فعلياً على العبادة الشعبية للإله حورس أيضاً، الصديق المخلص للإنسان، أو على العبادة الموسعة للإله المخلص أوزيريس أمنحوتب)[1].

يُبدي الباحث أ. ويغال 1923 في هذا الموضوع رأياً آخر أكثر وضوحاً وتوثيقاً في كتابه (حياة أخناتون وعصره)، والذي يبدو أكثر تخصصاً وتوسعاً في هذا المجال، إذ يقول: (كان أخناتون يرفض الاعتراف بفكرة جحيم يثير الرعب لا سبيل إلى التوقي منه إلا برقى سحرية لا تقع تحت حصر[2]. رمى أخناتون بهذه الرقى جميعاً بالنار، وقدم الجن والغيلان والمسوخ وأنصاف الآلهة و أوزوريس نفسه مع بطانته كلها لقمة سائغة لألسنة اللهب، فآلت إلى رماد). ويقول أيضاً: (لم يسمح أخناتون بأن تحفر لآتون أي صورة على القبور، وكان الملك يقول: إن الإله الحقيقي لا شكل له، وقد بقي على رأيه طوال حياته)[3].

١- سيمسون نايوفيتس: ج2 ص 197.

٢- صرح الحاخامات الإسرائيليون بأنهم قاموا بقتل الرئيس جمال عبد الناصر بالشعوذة والسحر الأسود، عقاباً له على ما فعل بإسرائيل. أخبار قناة الدنيا الفضائية 2009/3/7.

٣- أ. ويغال: حياة أخناتون وعصره. ص 102.

أما أرمان فيقول: (لم يرد ذكر لا لـ أوزريس ولا لملكته)[1]. ويقول العالم بريستيد: (لقد تجوهل أوزيريس كلياً ولم يرد له أي ذكر في أي مدونة لأخناتون أو في قبر من قبور العمارنة)[2].

و خلاصة القول في ثورة العمارنة الآتونية: على الرغم من ثورية وعلمية وعظمة الخطوة الملكية وإنسانيتها وحضارتها وتقدمها وقوتها في الوقت نفسه، إلا أنها لم تنتصر نهائياً وبشكل حاسم في المعركة الفكرية والسياسية في مواجهة الديانات التعددية وإبطالها، والانتقال بالشعب لعبادة (الإله الواحد) الذي تبناه أخناتون وجسده في إشراقة ونور الشمس. كانت مصالح الأعيان والإقطاع والكهنة والطبقة الأرستقراطية والساسة والعسكريين أقوى من أن يفرض أخناتون سيطرته عليها خلال خمسة عشر عاماً من حكمه. أضاعت هذه القوى المتنفذة فرصة كبرى للإمبراطورية المصرية لقيادة العالم باتجاه التوحيدية، كما فعلت الإمبراطورية الرومانية بركوبها موجة المسيحية والتوحيدية للسيطرة على حوض البحر المتوسط، وعلى أوروبا الوثنية الممزقة والمتخلفة في ذلك الوقت. وتبرز أهمية الاعتناق الديني القديم للسيطرة والنفوذ والطاعة في قول الفرعون للسحرة في قصة موسى والسحرة في القرآن الكريم: ﴿قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾[3]. والطَريقةَ المثلى هَناَ هيَ استمرَار اعتماد الفرعون كَإله على الأرَض يتمتع بالطاعة المطلقة والسلطان وملكية الأرض ومن عليها من مخلوقات وخيرات.

يصف سيمسون في كتابه انهيار النظام الآتوني: (انهار الاستطراد التوحيدي الآتوني الراديكالي بعد 15-20 عاماً فقط. وربما كان أخناتون في الثلاثين من عمره حين مات، وكان بلا شك رجلاً وحيداً، وقد مات حُباه الكبيران: نفرتيتي وكيا. وكان على الأقل أربعة من بناته الست ومعظم أحفاده وأمه (تا - تي) قد أخذهن الموت، ربما بسبب الوباء الذي أثر في جزء كبير من مصر الوسطى في تلك الفترة. ومن المؤكد أنه كان يعي أن الإمبراطورية في سبيلها للانهيار، وربما كان من التعقل بحيث يفهم أن فرص إبقاء توحيده الآتوني ضئيلة. ومن الواضح أنه دفن في المقبرة المحفورة في الصخر (TA26) التي أعدها لنفسه

١- أرمان: دين مصر 1905، ص 70.
٢- بريستيد: فجر الوجدان، ص 291.
٣- القرآن الكريم سورة طه الآية 63.

في جروف العمارنة الشرقية، ولكن لم يعثر على شيء في تلك المقبرة المنهوبة التي لم ينتهِ العمل بها سوى تابوت مكسور من الجرانيت ليس بداخله مومياء. وفي عام (1891م) اكتشف بيتري (BETRE) الأواني الكانوبية وتماثيل الأوشامبي التي تخص أخناتون، وقد نُثِرت في شوارع بقايا العمارنة)[1].

على الرغم من فشل ثورة العمارنة وعدم قدرتها على الصمود والبقاء بعد وفاة الملك الموحد أخناتون، لكنها بلا شك استطاعت ترك الإرث الكبير والبذور الأولى للديانة التوحيدية واللازمة لتطور وبروز الديانات التوحيدية بعدها، وتركت إرثاً كبيراً للديانة الموسوية وصولاً للمسيحية والإسلام.

كانت ثورة جديرة بالاحترام والثناء كمبادرة جريئة في عالم الأديان الوثنية القديمة في الشرق وحوض البحر المتوسط. ونستمر في المقارنة والاستنتاج حول الكيفية التي طورت فيها الديانة التوحيدية بعد عصر أخناتون: يختتم سيمسون بحثه الشيق والمهم: (كان إبراهيم حنيفاً بالفعل ولم يكن مصوراً حتى بعد أن أسمى موسى في القرن الثالث عشر ق.م هذا الإله يهوه. ظل يهوه خفياً دون أن تكون له أي صورة مادية. وكان يهوه من التجريد بحيث أنه رداً على موسى المُلِحّ أن يكشف له عن اسمه. وصف يهوه نفسه بأنه «أهيه» و «أهيه الذي أهيه»؛ أي «أكون وأكون ما أكونه»). ويضيف إن أخناتون لم يتخلَّ عن دوره كفرعون إله، ولكنه برر ألوهيته وأكدها: «كان العبرانيون يعتقدون أن الاسم يكشف عن الهوية العميقة، مثلهم مثل المصريين»[2].

لم يجرؤ موسى أو محمد (صلى الله عليه وسلم ادّعاء ذلك (والرأي لسيمسون هنا)، وكان مجرد تلميح يسوع الغامض إلى أنه ربما يكون ابن الله كافياً لأن يتهمه اليهود بالتجديف. واعتبر المسلمون الثالوث المسيحي شديد القرب من الشرك (التعددية)، وأعلن القرآن الكريم أن الله (..لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ..)[3]، (وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ)[4]، و (لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ..)[5]. واعترف كل من موسى ومحمد (عليهم السلام) بأن يهوه أو الله لا بد له من رسول، ولكن من المؤكد أنه ليس بحاجة إلى وسيط لا يصل إليه أحد غيره. ومن ناحية أخرى هناك تشابه بين ديانة آتون والمسيحية في أن كلاً من يسوع ومن ثم العقيدة الكاثوليكية أكدا السبيل إلى الآب يكون من خلال الابن الإلهي

١- سيمسون نايوفيتس: ج2 ص 207.
٢- بتصرف.
٣- القرآن الكريم سورة الفرقان الآية 2.
٤- القرآن الكريم سورة الإخلاص الآية 4.
٥- القرآن الكريم سورة المائدة الآية 73.

والبشري (...لَيْسَ أَحَدٌ يَأْتِي إِلَى الآبِ إِلاَّ بِي)[1]، مثلما أنه لم يكن هناك من سبيل إلى آتون (الإله) إلا من خلال ابنه (أخناتون)[2].

قبل اختتام هذا الفصل المتعلق بالتوحيد الأول لمصر والموحد الأول أخناتون، وقبل الدخول في فصل آخر من مرحلة الاضطهاد الفرعوني للآسيويين (الخاسوت) وفترة الخروج من مصر أنقل وجهة نظر يان أسمان التي قد تبدو مختلفة عن المفاهيم الموروثة لقصة النبي موسى ودعوته التوحيدية.

ينقل يان أسمان في كتابه (التمييز الموسوي) عن سيغموند فرويد (عالم النفس النمساوي اليهودي). ويصف قول فرويد بـ (فرضيتين خارقتين في الجرأة) الأولى: هي أن موسى لم يكن عبرياً، وإنما مصرياً. والثانية: أنه لم يمت في مؤاب مثلما تروي التوراة، إنما قتل من قبل شعبه نفسه. ويحاول تقرير (التوراة) حسب رأي فرويد أن يحجب الحقيقتين الأساسيتين بكل صعوبة، وهما الأصل المصري وقتله، ولكن حيلته تنكشف من خلال الآثار التي بقيت على الرغم من ذلك. ومن هذه الآثار هو اسم موسى المصري الواضح الذي أرادت التوراة تغطيته بالكاد بلون الأصل العبري. وهناك أثر آخر هو أسطورة الطفولة التي تقلب الخطة الأسطورية لـ (ولادة) البطل وعلى رأسها بشكل لا يقبل سوى نتيجة واحدة: (وجوب تهويده)، تهويد رجل مصري. أما الأثر الثالث فهو (اللسان الثقيل) لموسى الذي يشير إلى أنه لم يكن يجيد اللغة العبرية ولا يمكن أن يتفاهم مع اليهود[3] إلا بواسطة مترجم، ويدافع أسمان عن فكرة العدالة بقوله: (فإن فرضيتي عن الأصل الدنيوي لفكرة العدالة تدافع عن التوحيدية (التوراتية) ضد الاتهامات التي رفعها (فريدريك نيتشه)، فقد ادّعى أن مبادئ العدالة المنفذة ليست سوى (أخلاقاً عبودية)، لذلك يعتبرها من اختراع التوحيدية (التوراتية)، وبهذا اعتبر دين المسحوقين والمستضعفين، الذي ولّد الأحقاد والضغائن ضد انتصارات الإغريق والرومان الذين كانوا يمثلون القيم (الأصيلة) والقوة والجمال لطبقة الأغنياء والنبلاء)[4].

أتفق مع أسمان بالشق الأول من رأيه حول العدالة والأخلاق ذات الأصل الدنيوي، ولهذا نزلت الرسالات السماوية لترسيخها وتعميمها بين أبناء البشرية

١- العهد الجديد إنجيل يوحنا 14: 6.

٢- سيمسون نايوفيتس: ج2 ص 219-220.

٣- ملاحظة فرويد حول عدم معرفة موسى للعبرية أكدتها الآيات القرآنية بطلب موسى شد أزره بأخيه هارون (حيث يصفه أطلق لساناً). ويقصد فرويد باليهود العبرانيين، لأن اليهودية لم تظهر للوجود إلا في القرن التاسع ق.م.

٤- يان أسمان - التمييز الموسوي ص 66-67، 120-121 بتصرف.

كافةً دون تمييز أو تفضيل لأحد على الآخر بسبب لونه أو جنسه أو معتقده أو انتمائه، وأتفق أيضاً مع (نيتشه) في الشق الأول أيضاً من تحليله الموضوعي المثير حول (أخلاق العبودية)، التي هي اختراع عبراني متوحش دس دساً من خلال الرواية التوراتية وبشكلها الذي بين أيدينا وبتاريخها الماضي العنصري الأسود، لا سيما إذا ما تم الابتعاد عن التبني المطلق والأعمى للنظرة الاستشراقية والمركزية الأوروبية الفوقية والغربية الاستكبارية، بالفصل ما بين الدعوة التوحيدية الموسوية التي شكلت أساساً لظهور الديانات التوحيدية الأخرى (المسيحية والإسلام)، وبين ما شاب الرواية الكتابية من ادّعاء الأوامر الإلهية بالأمر في السرقة والكذب والخداع والمكر والإبادة والقتل والسلب والحرق لشعوب أخرى لم يكن بنو إسرائيل بأفضل منها، ولم يكن للأوروبيين وغيرهم، أن يدعوا إلهياً بأن الله قد أمر بإبادتها وسلب ممتلكاتها وهضم حقوقها واستيطان أراضيها بادّعاء أيضاً أن الإله يختار له شعباً يكون إلهه ليهبه أملاك الشعوب الأخرى في فرضية مخالفة للعقل والمنطق الإلهي. من الطبيعي أن تختار الشعوب آلهة لها أو إلهاً لها، ولكن أن يبحث الإله الخالق عن شعب له يتبناه ويكون إلهه الخاص دون الشعوب الأخرى، فإن الأمر يستدعي الشك والريبة، وإثارة الكثير من علامات الاستفهام حول الرواية برمتها، فالعالم نيتشه على ما يبدو قد أجرى المقارنة ما بين الممارسات الإغريقية والرومانية الوثنية التي شابها نظام العدالة والأخلاق والتحضر والرقي والعلم، وبين أخلاق المستعبدين والمضطهدين على يد الفرعون في مصر، والكتابيين، وما قاموا به من ظلم واضطهاد واستعباد وإبادة جماعية بحق الشعوب التي دخلوا إليها، حسب روايتهم الكتابية، فكان لا بد له من وصف معتقداتهم وأفعالهم، بأن مبادئ العدالة المنفذة ليست سوى (أخلاقاً عبودية) في محاولة من نيتشه ليقول إن أخلاق العبودية والهمجية متأصلة في نفوسهم ولن تغيرها أي قوانين إلهية.

بكل أسف ومرارة نقول: هذه الجذور الاستعلائية الحاقدة تشكل أصول الحضارة الأوروبية الغربية، حيث أصبحت مصدر إلهام وقدوة للمحتلين والإمبرياليين ولصوص الرأسمالية المتوحشة الصهيونية المرابية ونظامها

الاستبدادي الآيل للسقوط والانهيار أمام حتمية التاريخ ونضال الشعوب المستضعفة على هذه الأرض التي ابتليت بالنظم الاحتلالية الإمبريالية والعنصرية التوراتية التلمودية!!

تحدث العالم نيتشه عن القيم الأصلية والقوة والجمال لطبقة الأغنياء والنبلاء الرومان والإغريق، لكنه أغفل الجانب العلمي؛ هذا الجانب المهم الذي احتكم إليه الموحد المبدع (أخناتون) في تأكيد اكتشافه وإيمانه بالعلم حينما أكَّد أن الشمس ليست مصدر الطاقة والنور فحسب، بل هي مصدر إنتاج الزمن ومواقيته وفصوله، من خلال تعاطيه مع العقل والمنطق، فقد أبطل كل المعتقدات التي تخالف منطق العلم والعقل، حيث رفض وحارب الآلهة المحلية المتعددة والشعوذة والسحر والتعاويذ وكل ما يناقض منطق العلم والعقل، في وقت نرى فيه العبرانيون (حسب الرواية التوراتية) بقيادة يوشع بن نون قد حولوا ديانة وتوحيد موسى (صلى الله علبه وسلم) الإلهية إلى معتقدات وأخبار خرافية تجافي منطق العلم والوحي الإلهي الذي لا يمكن أن يوحي بما يخالف منطق خلق الكون والعلم وطبائع الأشياء، فأي تعاليم أو إضافات دست من قبل الكتبة والكهنة ولا تتوافق ومنطق العلم والواقع فهي باطلة، ولا يمكن نسبها للوحي الإلهي والكتب السماوية الموحى بها إلهياً للأنبياء والمرسلين. قام رجال الكنيسة الجهلة باضطهاد وتعذيب وحرق العلماء الأوروبيين لأن اكتشافاتهم ودراساتهم خالفت رواية العهد القديم، حينما تعارضت هذه العلوم والمكتشفات معها. ومن أولئك العلماء (جيوردانو برونو) الذين أُحرِقوا أحياء بعد تعذيب شديد على يد عصبة محاكم التفتيش الأوروبية، وتقول التوراة المكتوبة: (۞حِينَئِذٍ قَالَ يَشُوعُ لِلرَّبِّ، يَوْمَ أَسْلَمَ الرَّبُّ الأَمُورِيِّينَ أَمَامَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، أَمَامَ عُيُونِ إِسْرَائِيلَ: «يَا شَمْسُ دُومِي عَلَى جِبْعُونَ، وَيَا قَمَرُ عَلَى وَادِي أَيَّلُونَ». ۞فَدَامَتِ الشَّمْسُ وَوَقَفَ الْقَمَرُ حَتَّى انْتَقَمَ الشَّعْبُ مِنْ أَعْدَائِهِ. أَلَيْسَ هَذَا مَكْتُوباً فِي سِفْرِ يَاشَرَ؟ فَوَقَفَتِ الشَّمْسُ فِي كَبِدِ السَّمَاءِ وَلَمْ تَعْجَلْ لِلْغُرُوبِ نَحْوَ يَوْمٍ كَامِلٍ)[1].

أي منطق ووحي هذا المدعي الذي يناقض منطَق خلق الكون والعلم؟ متى توقفت الشمس وتوقف القمر، وبالتالي توقف دوران الأرض حول نفسها؟ هل

١- العهد القديم سفر يشوع 10: 12-13.

شاهد العالم هذه الكارثة؟ وهل تبقَّى على سطح الأرض من يشاهد ويشهد؟ إنها الخرافة والأسطورة التي أراد الأحبار والكتبة إضفاء الصفة الإلهية والوحي عليها تسويغاً لروايتهم المدعاة غير الإلهية!